رشيد ياسين

سلاح النفط وقومية المعركة

« لا ينبغي ان يعتبر النفط اثمن من الدماء العربية » .

هذه العبارة التي قالها الرئيس العراقي احمد حسن البكر منذ يومين اوجزت ، بمنتهى البلاغة ، الخيار الذي تواجهه دول النفط في العالم العربي : ان تبادر فورا الى قطع شحنات النفط عن حلفاء اسرائيل ، وفي مقدمتهم الولايات المتحدة الاميركية بالطبع ، او ان تشارك بصورة غير مباشرة في اراقة المزيد من الدماء العربية ! .

وامام خيار كهذا هل يحق للمترددين ان يدعوا انهم يقومون بدورهم في المعركة ، وهل تغني عن قطع النفط مساعدات مالية وطبية تقدم الى هذه الجبهة او تلك ، او قوات رمزية تشترك في القتال ؟!

ان العلاقة بين تدفق النفط العربي الى مستودعات الاعداء وبين تدفق الدم العربي على خطوط القتال وفيما ورائها علاقة ظاهرة ، متعددة الجوانب . ولعل أقرب هذه الجوانب الينا في هذه اللحظة واشدها ايلاما ان الطائرات الاميركية التي خفت لنجدة الطيران الاسرائيلي المهيض الجناح انما تستمد وقودها من آبار النفط العربية ، فليس معقولا ان يستورد الاسطول الاميركي السادس، الذي يجل ـ بصفة دائمة ـ ضيفا ثقيلا على البحر المتوسط ، وقوده من آبار تكساس ! واذا وضعنا جانبا كل تلك الارباح الاسطورية التي امتصها تنين الاحتكارات الاميركية من باطن الجزيرة العربية ، والتي تحول قسم منها الى طائرات فانتوم وقنابل نابالم في ايدي القتلة الاسرائيليين ، فان قطع النفط عن الولايات المتحدة والمانيا الغربية في هذه اللحظة بالذات سيوقع الهلع والارتباك في الاوساط الحاكمة في واشنطن ، وسيجعل حكام بون ، الذين يرقصون على اكثر من حبل واحد ، يفكرون طويلا قبل ان يسمحوا بشحن طائرات الفانتوم الموجودة في المانيا الغربية الى اسرائيل التي بات سلاحها الجوي « خردوات » مبعثرة في أصقاع مختلفة من الارض العربية .

ويكذب كيسنجر حين يتظاهر في مؤتمره الصحفي بان قطع النفط العربي عن اميركا لن يغير من موقفها ازاء اسرائيل . فاميركا ـ كما يعترف خبراؤها بالذات ـ لن تستطيع الاستغناء عن النفط العربي قبل مضي عشر سنوات على الاقل . واذا ما بادرت الدول العربية المعنية الى قطع النفط عنها فورا فان هذا لن يحد من تحركها العسكري ضدنا وحسب ، بل سيحرم الفرد الاميركي من وسائل التدفئة الكافية ويضطره الى ارتداء معطفه داخل المنزل ، وما أظنه مستعدا لتحمل هذا القرم الفادح مقابل ان يتاح لاسرائيل ان تواصل السطو والاغتصاب والعربدة في الشرق الاوسط !

هذه حقائق لم تعد خافية على أحد ، ولا سيما بعد الجزع الذي استحوذ على العالم الرأسمالي برمته في أعقاب تأميم شركات النفط الاميركية في ليبيا . من هنا برز الى المقدمة شعار « النفط في المعركة » . واكتسب هذا الشعار صفة ملحة بعد ان اشتعلت النار ، التي انتظرناها طويلا ، في سيناء والجولان . فماذا تنتظر دول النفط لتضع في أيدي مقاتلينا البواسل هذا السلاح المرهف ؟!

لقد اعلنت بعض هذه الدول انها ستقطع النفط عن الولايات المتحدة اذا واصلت هذه تزويد اسرائيل بالسلاح . وها هي وكالات الانباء تذيع ان واشنطن ستعوض الاسرائيليين ، في غضون يومين او ثلاثة ، عن كل ما خسروه من سلاح ، وان اعدادا كبيرة من المتطوعين الاميركيين في طريقهم الى الشرق الاوسط ليشتركوا في القتال ضد العرب . وفوق هذا كله فقد توافرت القرائن على ان سلاح الجو الاميركي يشارك ـ وربما على نطاق اوسع مما نظن ـ في الغارات الهمجية على اراضينا ... فهل بعد هذا كله من مبرر للانتظار ؟ وهل ثمة قيمة تعلو على المصير القومي وعلى الدماءالعربية التي خالطت التراب تحت انقاض المنازل الآمنة في دمشق وحمص واللاذقية وبور سعيد وغيرها من المدن التي امطرها عدونا المستكلب بنيرانه ؟!..

مرة اخرى نعود الى موقف العراق الذي كان امثولة رائعة للالتزام القومي الحق والانسجام الكلي بين الشعارات المعلنة والممارسة الفعلية . فقد اعلن العراق انه يضع جميع امكانياته في خدمة المعركة ، ويشهد الدور الذي لعبته القوات العراقية وما تزال تلعبه في جبهة الجولان وفي سماء سيناء وبقية الارض المحتلة بأن العراق رمى في المعركة فعلا بكل ثقله العسكري .. وكان العراق سباقا الى استخدام سلاح النفط عندما بادر الى تأميم حصص الشركات الاميركية في شركة نفط البصرة .

بقي ان يفعل الآخرون بعض ما فعله العراق فيبادروا ـ على الاقل ـ الى قطع النفط عن الاعداء ، اذا لم تواتهم الجرأة على تأميمه نهائيا . وعند ذلك فقط سيدفعون الظنون عن صدق عروبتهم ، وسيكون لهم شرف الاسهام في تحقيق النصر .

المحرر
١٦ تشرين الاول

بداية النظر الستراتيجي

الا ، وقد اجترح جنودنا ما يشبه المعجزة حين عبروا القناة ودكوا خط بارليف الحصين ، وخاض مقاتلونا في سيناء والجولان ملاحم قال عنها الخبراء العسكريون الغربيون بالذات انها من اعظم معارك المدرعات في التاريخ ، نقف نحن ، الذين اصطلح على تسميتنا بالادباء والكتاب ، ذاهلين وقد باغتتنا الاحداث ، تماما كما باغتت المراقبين الاجانب الذين لا يعرفون من واقعنا الا قشرته الخارجية !

لقد طرق دوي المدافع أسماعنا ونحن عاكفون على كتابة « بكائيات حزيران » فانتفضنا وفركنا عيوننا دهشة ، وتطلعنا الى الافق الذي جرفت غيومه فجأة موجة كاسحة من النار ، وتساءلنا بقلوب لم تخل رغم الفرح الطفولي من بقية شك وخوف : أهذه حقا هي أمتنا ؟ أهذا الجندي الذي يلف جسمه بالمتفجرات ويرتمي تحت الدبابة الاسرائيلية في سيناء هو نفسه الجندي العربي الذي زعموا انه ترك حذاءه وجرى حافيا لينجو بنفسه من نيران العدو قبل ست سنوات ؟.. أهذا الضابط الجريح الذي يتسلل من المستشفى في دمشق ، في غفلة من الاطباء ، ليزج بنفسه في جحيم المعركة من جديد ، هو نفسه الضابط العربي الذي أوهمنا أعداؤنا ـ وأوهمنا أنفسنا ـ انه زاهد في القتال ؟!

أجل ، هذه أمتنا وهؤلاء جنودنا ، ولكننا ـ نحن الذين يفترض فينا ان نكون مرآة لضمير الامة وان نستشف ما يختمر في اعماقها ـ أثبتنا اننا لم نكن غير مراقبين أجانب نرى قشرة الواقع ولا نرى الروافد التي تتجمع في أعماقه ! وانها لشهادة اخفاق محزن لادب أمة ما ان يعجز عن تشخيص هويتها واستشراف منظورها التاريخي من خلال طاقاتها المادية والروحية الكامنة .

في النصف الاول من القرن الماضي يوم كانت روسيا غارقة في التخلف ونظام القنانة ، استطاع غوغول الذي نفذ بعبقريته الى روح امته ان يستشف الدور الذي كانت ستلعبه هذه الامة في تاريخ الانسانية . ويوم كان المحتلون الهتلريون يعربدون في باريس كتب فيركور « صمت البحر » ليؤكد ان روح شعبه لن تهزم . اما نحن فقد كان ادبنا بعد حزيران (معظمه على الاقل) نعيبا موحشا يغذي روح الهزيمة ويشكك الفرد العربي في طاقاته وتراثه وقدرته على مواجهة العصر . وفات ادباءنا ان جوهرنا كأمة اضاءت غياهب العالم قرونا عديدة كان لا بد ان يتألق من جديد حين تزاح عنه اوضار التخلف والفساد والعمالة التي طمسته حينا من الدهر .

فهل ستكون حرب تشرين بالنسبة لادبنا بداية النظر « الستراتيجي » الذي يتخطى النكسات والهزائم العابرة ليستشرف الخطوط العريضة لحركة التاريخ ؟ وهل سيكون ميلادنا الجديد في ضرام المعارك ايذانا بميلاد أدب عربي جديد يستوعب واقعنا بكل أبعاده ويسبق الاحداث بدلا من ان يجري في غبارها ؟!

تلك هي المهمة التي تطرحها الاحداث الراهنة امام رجال الادب والثقافة .

المحرر

٢٢ تشرين الاول

بعد حرب ٦ تشرين

ما من شك في ان حرب تشرين الاول قد وضعت أدبنا على أعتاب مرحلة جديدة ، فما هي المتطلبات التي تطرحها هذه المرحلة امام الادب ، وهل يتوجب عليه منذ الآن ان يتبنى ـ ولو بأعم الخطوط ـ برنامجا واضحا يحدد غاياته ويعصمه من الضياع ؟

في رأيي ان برنامجا كهذا بات ضرورة حيوية . ومن الطبيعي ان مهمة صياغة هذا البرنامج منوطة بمؤتمر يعقده الادباء العرب ، ولكن هذا لا يمنع من ابداء بعض الآراء المستخلصة من احداث الحرب الاخيرة .

وليس الذي يعنينا هنا ما أسفرت عنه الحرب بصورة مباشرة او ما قد تسفر عنه في الغد القريب ، فهذا متروك للمعلقين السياسيين ، بل يعنينا ما هو أعمق دلالة وأبعد اثرا من نتائج الحرب المباشرة ، ونعني صورة الانسان العربي كما أبرزتها ظروف الحرب في خطوط القتال الاماميه وفي المؤخرة على السواء ، وهي صورة تختلف جوهريا عن صورته في الادب الذي درجنا على تسميته بأدب حزيران .

لم يكن أدب حزيران رديئا في جملته ، بل يمكن القول بأنه نجح الى حد كبير في التعبير عن المرارة التي طفحت بها النفوس بعد هزيمة حزيران المأساوية . ولكنه كان أدبا قصير النظر ، مفرطا في التشاؤم ، متحاملا على الانسان العربي . ويصح في هذا الصدد ان نتذكر قصيدة نزار قباني المعروفة « هوامش على دفتر النكسة » التي كانت حجر الاساس في بناء أدب حزيران الموحش . فقد وفق قباني في قصيدته تلك الى تشخيص عوامل الهزيمة واحتج باسمنا جميعا على المهانة التي نحقتنا ، ولكنه نفض يديه من ابناء جيله ووضع آماله في الاطفال العرب الذين توسم فيهم انهم سيغسلون عار آبائهم . ولكن ها هو جيل الآباء الذي كفر به نزار قباني يثبت له انه غالى في كفره وتشاؤمه وان الانسان العربي في أيامنا هذه ما زال قادرا على ان يقاتل وينتصر اذا توافر له السلاح الحديث والقيادة الحكيمة النزيهة .

ما نحتاجه في مرحلتنا الجديدة هو أدب يؤكد القيم الحيوية الاساسية التي يجب ان يتجه النضال العربي منذ اليوم الى توكيدها ، وهي قيم يمكن تلخيصها في بناء مجتمع عربي علماني ، حر ، موحد .

ان ما كان حتى الامس القريب أفكارا مجردة وشعارات قد أعطته الحرب وجودا حسيا يدنيه من اللمس والادراك . فاذا كنا في الماضي نحلم بالوحدة العربية كما يحلم الفقير المعدم بثروة قد تهبط عليه يوما من السماء ، فان اشكال التضامن القومي التي تجلت في حرب تشرين الاول قد كشفت ، بصورة ملموسة ، عن جسامة الطاقات التي تنطوي عليها الوحدة العربية ، وجعلت منها مطلبا آنيا لا سبيل الى ارجائه ، ولا سيما بين تلك البلدان العربية التي لا تشكو تفاوتا ملحوظا في مستوى التطور الاقتصادي او تباينا جوهريا في العقائد .

واذا كانت الدعوة الى « علمنة » الحياة العربية قد ارتبطت حتى الآن بتوق الفئات المستنيرة في العالم العربي الى بناء مجتمع عربي مزدهر متحضر ، فان الحرب قد علمتنا ان تطورنا العلمي ليس ضمانة لمستوى معين من الرفاه المادي والروحي وحسب ، بل هو ضمانة لوجودنا ذاته كأمة ذات سيادة ، قادرة على حماية حريتها وتقرير مصيرها . وبعبارة اخرى فان علينا ان نسعى الى امتلاك التكنولوجيا التي تمكننا ، لا من صنع البراد والترانزستور وحسب ، بل الكومبيوتر والطائرة والصاروخ كذلك . ولا يخطر في بالي سبب يجعلنا نتهيب التطلع الى مثل هذه الآفاق . لقد أخذنا حضارة العالم القديم فطورناها واغنيناها ، فلم لا يكون اسلافنا لنا قدوة ؟!

واخيرا فان المواطن العربي الذي كابد في كل تاريخه الحديث وطأة التسلط والكبح والامتهان ، مهما تفاوتت الدرجات بين عهد واخر وبين قطر واخر ، آن له اخيرا ان يسترد كرامة المواطن وحريته ، وان يتخلص من كل المعوقات التي تلجم مبادرته وقدرته على الابداع .

ان الدفاع عن الوطن مهمة لا يجيدها الا الاحرار وحدهم ، لانك اذ تسلب المرء حريته انما تسلبه وطنه الحقيقي ولا تبقي له شيئا يستهين من اجله بالموت .

هذا ، بكل اختصار ، ما يبدو لي انه مهمة الادب العربي في مرحلته الجديدة ـ النضال في سبيل الوحدة والعلم والحرية .

المحرر

٥ تشرين الثاني